مثاليات الأدب العربي والإسلامي

د. صديق عبدالرحمن إبراهيم

أستاذ مساعد بقسم الأدب والبلاغة بالكلية .

الحمد لله والصلاة والسلام علي رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد.

إن القيم الإنسانية من أهم ما تتوارثه الأمم من الآداب عامة والآداب العربية والإسلامية خاصة جيلا بعد جيل، لأن القيم والمثل الحقيقية لا يؤثر عليها مر الزمان وتعاقب الدهور، ولذا كانت الأديان السماوية من أهم ما يمثل تلك القيم لأنها تزكي روح المثالية، وتدعو إلي تحكيم العقل لاستيعاب كل ما هو منطقي تكريسا لدور الأمر الواقع، وتمهيدا لقبول كل ما يصون ويحترم العقل الإنساني، للوصول إلي جميع الحقائق المحيطة بالمجتمع البشري، والالتزام بفضائلها طواعية، وإنجاز أهدافها عن قناعة نابعة عن الفكر الإنساني، وتبنِّي منهاجها ورعايته بالحجة والبرهان، بفضل ما وهبه الله لعباده من عقول نيرة وفطرة سليمة.

ولما كانت تعاليم السماء هي أكبر موجه للمجتمعات البشرية، وأكثر القيم ثباتا أمام التيارات الحضارية والمتغيرات الثقافية، كان لا بد أن يكون لها المقدرة البرهانية علي التفوق النوعي بين زحام المثل غير الشرعية، والبروز المتميز أمام التحديات المنظمة، والصعاب والعقبات الموجهة.

إن أهم ما يمثل الرسالات السماوية خير تمثيل هم الرسل والأنبياء الذين وهبهم الله العصمة من الخطأ، لذا كان المنهاج الذي جاءت به الرسل هو المنهاج المثالي الذي يجب أن يلتزمه الناس من بعدهم، ولكن لا يخلو ذلك الالتزام من خلل أو زلل كما هي الفطرة المثالية عند البشر الذين جبلهم الله علي الخطأ إلا أن يتوبوا ويستغفروا.

ونحن في هذا البحث بين يدي تجربة للأدب الإسلامي في جانب المثالية والواقعية والالتزام، وسط أمواج عاتية من التيارات العصية من أذناب العصر الجاهلي، وذلك ما بين تحديات القرآن الكريم، ومعجزات سنة النبي محمد ﷺ، وبين رواسب آداب وأخلاق من بقايا الجاهلية.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في الوقوف علي المؤشرات الصحيحة لقراءة ميزان الأدب العربي والإسلامي أثناء الموجة العاتية في وجاهة الإسلام، بعد الزلزال القوي الذي داعب كيان الأدب الجاهلي، مما أكد علي التمايز الذي زاد من إرساء دعائم منهجية الإسلام في تصدره وقيادته للآداب والأخلاق في جميع أنحاء المعمورة.

أهمية البحث:

تنبع أهمية البحث من الضرورة الملحة للتنقيب في القيم الروحية العربية والإسلامية الراسخة في معالم الإنسانية، والتي كانت وما زالت الآلية النافذة التي

كسرت حاجز الانسداد الأدبي والأخلاقي أمام التاريخ.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلي الوقوف علي الإطار الحواري للأدب العربي والإسلامي من منابعه الصافية لاستعراض جدلياته وتوثيق أصوله، وإثبات حدوده المتمثلة في مُثُله وقيمه والتزاماته، وذلك عبر القيم الأدبية المنظومة شعرا، والمعاني الأخلاقية المرسومة نثرا، في ظل التوجهات القرآنية والتعاليم النبوية.

منهج البحث: منهج البحث هو الوصف والتحليل والنقد.

أسئلة البحث:

يركز البحث في الإجابة عن الأسئلة التالية:

(1) هل كانت المثالية في الأدب العربي والإسلامي نبعا أخلاقيا تنهل منه مختلف القيم في المجتمعات الإنسانية؟.

(2) لماذا كانت الواقعية من أوضح الصور الأدبية التي تضبط القيم الأخلاقية في مسار الحياة البشرية؟.

(3) هل بالإمكان أن يكون الالتزام مطية للتعمية الأدبية ومحورا لتغيير مسار المفاهيم الأخلاقية؟.

هيكل البحث: يتكون البحث من الآتي:

المقدِّمة

منهجية البحث

المبحث الأول : المثالية الأدبية مرتكز الواقعية والالتزام

المبحث الثاني : الواقع المثالي والأمثلة الواقعية بين التقليد والتجريد

المبحث الثالث

الخاتمة وتشمل:

الخلاصة وأهم النتائج وأهم التوصيات

المبحث الأول
المثالية الأدبية مرتكز الواقعية والالتزام

إن كلمة أدب تحمل معنىً عميقا يعد قاسما مشتركا بين جميع البشر في هذه المعمورة، بين من مضي وقضي نحبه ومن هو حيَّ يرزق، وبين من هو آت إلي قيام الساعة، إنه معنيً معجزاً ومثيراً ومشوقاً، ليس تشويقاً أو إثارةً استخدم فيها الأدب عدته وعتاده وذخيرته ليفرض نفسه على الماضي والحاضر والمستقبل، ولكنها أصالة في جوهر الأدب هي المقتبس الذي تتكيف معه الشعوب والقبائل قرباً وبعداً،

سلباً وإيجاباً، طوعاً وكرهاً، إرادةً وقهراً، حسناً وقبحاً، تقييدا وإطلاقاً، فأي شعب ملزم بأن يختار لنفسه التكيف مع هذا الأدب شاء أم أبى؟ ويتخلق بأي لون من ألوان الأخلاق أراد، فإن الشعوب والقبائل لم يهددها شبح أدبي (من قبل) يلازمها طوال تاريخها! إن الشعوب والقبائل من خلق الله عزَّ وجلَّ، قال تعالي ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ [1] فهل كان الأدب منذ أن خلق الله الناس؟.. نعم!... فما هو الأدب ؟

ما هو الأدب:

جاء في لسان العرب، الأدب:

الذي يَتَأَدَّبُ به الأَديبُ من الناس سُمِّيَ أَدَباً لأَنه يَأْدِبُ الناسَ إِلى المَحامِد ويَنْهاهم عن المقَابِح، لقد أَدُبْتُ آدُبُ أَدَباً حسناً وأَنت أَدِيبٌ، وأَدُبَ الرَّجلُ يَأْدُبُ أَدَباً فهو أَدِيبٌ وأُرْبَيَ أْرُبُأَ رَابةً وأَرَباً في العَقْلِ فهو أَرِيبٌ، والأَدَبُ أَدَبُ النَّفْسِ والدَّرْسِ، والأَدَبُ الظَّرْفُ وحُسْنُا لتَّناوُلِ، وأَدُبَ بالضم فهو أَدِيبٌ من قوم أُدَباءَ وأَدَّبه فَتَأَدَّب عَلَّمه،واستعمله الزجاج في الله عز وجل فقال وهذا ما أَدَّبَ اللهُ به نَبِيَّه صلى الله عليه وسلم.[2]

ابن منظور والأدب:

الأدب وفق ما أورده ابن منظور يتناول معنى الأخلاق ضمناً ولكن لم يصرّح بها تصريحاً، وكذا الحال مع كل من الخليل بن أحمد الفراهيدي في كتاب العين، والصاحب بن عباد في المحيط في اللغة، والجوهري في كتاب الصحاح في اللغة، وفي القاموس المحيط للفيروز أبادي، ومختار الصحاح لزين الدين الرازي، وتهذيب اللغة للأزهري، فكل أولئك عرض لمعني الأدب وعرفوه تعريفا متشابها، غير أن صاحب تاج العروس من جواهر القاموس: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي: قد أورد معني الأدب مفسراً بالأخلاق في قوله: نَقَل الخَفَاجِيُّفي العِنَايَة عن الجَوَالِيقي شرح أَدَبِ الكَاتِبِ: الأَدَبُ في اللغة: حُسْنُ الأَخلاق وفِعْلُ المَكَارِم وإِطلاقُه على عُلُومِ العَرَبِيَّة مُوَلَّدٌ حَدَ ثَفي الإسلام.[3]

(1) الحجرات 13

(2) لسان العرب،لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري،دار صادر، بيروت،الطبعة الأولى، ج ص206.

(3) تاج العروس من جواهر القاموس، تأليف: محمدمرتضى الحسيني الزبيدي، دارالهداية، تحقيق: مجموعة من المحققين، ج2، ص12

نجد أن مدلول الأدب فيما سبق من تعريف نجده شاملا لمضمون ما جاءت به تعريفات مصطلح الأدب سواء كان عربيا أم إسلاميا ولذا لم نتطرق لتلك التفصيلات إذ أنها ليست لازمة الذكر في كل ما يطرقه الكتاب والأدباء من الباحثين من خلال معالجتهم لقضايا الأدب المختلفة.

المثالية مرتكز الواقعية والالتزام:

إن المثاليات الأدبية والأخلاقية في تاريخ الإسلام لا تحصي خاصة في حياة الصحابة عند معاصرتهم لرسول الله ﷺ، وبعد انتقاله إلي الرفيق الأعلى، وكانت المثالية تمثل محورا للواقعية والالتزام الذي كان يتعاهده الصحابة من عند رسول الله قولا وفعلا وتقريرا، وأول ما نقف عليه في هذه الدراسة المثالية، فما هي المثالية.

المثالية في اللغة:

جاء في المعجم الوسيط أن الشيء المثالي: وصف لكل ما هو كامل في بابه كالخلق المثالي واللوحة المثالية.(1)

المثالية في الأدب:

والمثالية في الأدب هي الاعتراف بالحقائق الشرعية والتعامل معها بمصداقية، وإنزالها منزلة الريادة، وجعلها محورا أساسيا تدور حوله معاملات وسلوك المجتمع، فيما أخبر به الرسول ﷺ من ما كان يجده الصحابة رضي الله عنهم واقعا معاشا، ولذا كانت المثالية قرينة الصدق الإخباري الذي جاء به الوحي سواء كان القرآن الكريم أو سنة النبي محمد ﷺ، وفي هذا الشأن يقول الدكتور محمد بن سعد الدبل في كتابه من بدائع الأدب الإسلامي:

المثالية تعني أن الأدب الإسلامي هو اللون الأدبي الذي أمكن أن ينتقل بالإنسان البشري الذي استخلفه الله تعالي لخدمته ومنفعته في ظل التصور الإسلامي السليم وكان لزاما أن يتخرج في مدرسة هذا الأدب إنسان مثالي يحتكم في عطائه الأدبي إلي مقومات الأدب الغائي النبيل الهادف الملتزم الذي يجمع في خصائصه

(1) المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفي، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية، ج2/ص854.

الفنية قوة العقل وسلامة الفن وصفاء المعتقد.[1]

فهذا هو الأديب الإسلامي الدكتور الدبل يعطي تعريفا للمثالية يجسد فيها معني حياة الإنسان في هذه الدنيا التي أوجده الله فيها من أجل العبادة بالعقيدة الصحيحة ، فنراه يرد كل معاني تعريف المثالية إلي صفاء المعتقد، ومعني ذلك أن المثالية هي الالتزام بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه محمد صلى الله عليهوسلمل.

إن هذا البيان يعضد ما ذكرناه في أن المثالية هي المرتكز الأساسي للواقعية والالتزام، والأجدر بنا أن نقف هنا علي كل من الواقعية والالتزام لكي تكتمل الصورة الأدبية المطلوبة خبرا وعملا، لأن الخبر يعطي تفسيرا ذهنيا للمثالية، والواقعية تعطي نقلا وصورة ملموسة لفحوى المثالية، والالتزام يعطي ترجمة عملية مطابقة لتلك المثالية علي أرض الواقع ولذا يقول صاحب روح المعاني:

إن الخبر دال وضعا على صورة ذهنية على وجه الإذعان تحكي الحال الواقعية، ولا شك أن لا إله إلا الله محمد رسول الله من قسم الخبر، فهما دالان وضعا على أن قائلهما ولو تحت ظلال السيف معتقد لمضمونهما على وجه الإذعان، وعدم كونه معتقدا في نفس الأمر احتمال عقلي والمطلع على ما في القلوب علام الغيوب.[2]

إن صاحب روح المعاني يبين ضمنا وتصريحا أن الإخبار عن الواقعية يكون إذعانا وانقيادا لما هو مقرر منهجيا في واقع الناس، ثم نراه يقول بلباقة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله من قسم الخبر، وإنما أراد بتلك الكلمة الدالة علي التوحيد أراد بها الكتاب والسنة، وأنعم به من خبر عظيم، إذن فما هي الواقعية التي تعني بخبر السماء؟ .

الواقعية:

الواقعية هي الحقائق الملموسة حسا والمفهومة عقلا لما جاءت به الشريعة الإسلامية من أحكام تضبط سير المجتمع الإنساني في كل مكان وزمان من أنحاء المعمورة.

الواقعية في الفلسفة:

وفي المعجم الوسيط: الواقعية في الفلسفة مذهب يلتزم فيه التصوير الأمين لمظاهر الطبيعة والحياة كما هي، وكذلك عرض الآراء والأحداث والظروف

(1) من بدائع الأدب الإسلامي، للدكتور محمد بن سعد الدبل، من إصدارات نادي المدينة المنورة، رقم الكتاب (67)، دار البلاد للطباعة وانشر، جدة، من مقدمة الكتاب

(2) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، ج26/ص61

والملابسات دون نظر مثالي ومذهب أدبي يعتمد على الوقائع ويعنى بتصوير أحوال المجتمع.[1]

يقول صاحب المعجم الوسيط إن الواقعية هي التزام التصور الأمين... وأي أمانة يجدها الإنسان في غير الكتاب والسنة لتصور أحوال المجتمع تصويرا أمينا وصادقا؟.

الواقعية في الأدب:

ولذلك نجد صاحب كتاب بدائع الأدب الإسلامي يطوّف بنا مرة أخري في سماء الواقع ليقول :الواقعية في هذا اللون من الأدب تعني الانتقال بالفكر الإنساني، وبالعطاء الأدبي من مراحل ظلت الدراسات الأدبية والنقدية تعيش في متاهاتها زمنا طويلا بين مذاهب متباينة مختلفة، لا تستقر علي قاعدة ثابتة (كلاسيكية) المذهبية التي تبتعد عن واقع الأكثرية الاجتماعية إلي (رومانسية) تقترب منها، لكن في الخيال دون العقل متوجهة إلي العواطف الإنسانية لكن بواقع سلبي في النظرة إلي الحياة فكان لزاما أن يكون عطاء هذه المذاهب هدما لا بناء.[2]

هذه هي الواقعية من المنظور الأدبي العام غير المتقيّد بالإسلام، فإنها تكون على النقيض مما ترمي إليه المثالية التي وضعت قواعد واضحة لكي ترتكز إليها الواقعية، ومما قررناه آنفا أن المثالية قررت الكتاب والسنة للسيادة الأدبية والريادة الفكرية، فكان لا بد للواقعية أن تتكأ عليها إذا أردت أخذ موقعها الصحيح في خارطة الأدب الإنساني، مما يؤكد علي ضرورة التزام الواقعية بالقرآن الكريم ومنهاج نبينا محمد ﷺ، فما هو الالتزام؟ .

الالتزام:

الالتزام هو التطبيق العملي والقولي لتلك الموجهات الإسلامية من أحكام الشريعة ومعاملاتها التي أقر بها الأدباء والكتاب، والالتزام هو المجال العملي لتطبيق المثالية والواقعية، إذ أن الواقعية تقوم علي المثالية والالتزام يقوم عليهما معا، إذا فالالتزام إتباع لما جاء به الحق جل وعلا في التنزيل من الوحي القرآني، ولذا قال الله تعالي: (اتبعوا ما أنزل الله) أي (التزموا) بالقبول والعمل قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، ألفينا وجدنا وقال الشاعر:

---

(1) المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفي، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية، ج2/ص1051

(2) من بدائع الأدب الإسلامي، للدكتور محمد بن سعد الدبل، من إصدارات نادي المدينة المنورة، رقم الكتاب (67)، دار البلاد للطباعة وانشر ، جدة، من مقدمة الكتاب

فألفيته غير مستعتب ولا ذاكر الله إلا قليلا

لأن غاية الفساد في الالتزام أن يقولوا نتبع آباءنا ولو كانوا لا يعقلون فقروا على التزامهم هذا إذ هي حال آبائهم.[1]

أما قول الشاعر آنف الذكر فأوله:

أريت أمرا كنت لم أبله أتاني فقال اتخذني خليلا
وألفيته حين جربته كذوب الحديث سروقا بخيلا
فذكرته ثم عاتبته عتابا رفيقا وقولا جميلا
فألفيته غير مستعتب ولا ذاكر الله إلا قليلا
ألست حقيقا بتوديعه وإتباع ذلك صرما طويلا[2]

أنظر إلي الشاعر كيف تمثل بالشعر في أمر الالتزام بالمعني والمضمون، وإن كان هذا الشاعر قد تمثل بالمعني تلميحا فنجد من الشعراء قد جاء بلفظ الالتزام تصريحا فانظر إلي ما قاله سبط بن التعاويذي:

وأجتنب الذبائح لا بحكم الضرورة بل بحكم الالتزام
وأترك طائعا من غير عذر موافقة لكم شرب المدام
إلى أن تجمع الأيام شملي بكم ما بين باطية وجام[3]

لقد ذكر الشاعر والأديب حكم الالتزام في الأبيات آنفة الذكر، والالتزام هو خلاصة الأدب والأخلاق لأن صاحبه وملتزمه يبين مدي قربه وبعده من الشرع الإسلامي المتمثل في الكتاب والسنة بعد أن يؤمن به ويقر إقرارا تاما.

وفي كتاب توحيد الألوهية: إن الإيمان مأخوذ من الأمن الذي هو الطمأنينة كما أن لفظ الإقرار مأخوذ من قرّ يقر وهو قريب من آمن يأمن لكن الصادق يطمئن إلى خبره والكاذب بخلاف ذلك كما يقال الصدق طمأنينة والكذب ريبة فالمؤمن دخل في الأمن كما أن المقر دخل في الإقرار ولفظ الإقرار يتضمن الالتزام.[4]

مفهوم الالتزام في الأدب:

إن مفهوم الالتزام عند الأدباء أو معني الالتزام عند الأدباء: يعني أن يأخذ الأديب بمنهج معين في أعماله الأدبية كأن يبدع في فن القصة فيلتزمها، أو أن يبدع

(1) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الشعب، القاهرة، ج2/ص211
(2) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، تحقيق: علي مهنا وسمير جابر، ج12/ص361
(3) ديوان سبط ابن التعاويذي ج1/ص348
(4) كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، لأحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، (كتاب التوحيد) ج7/ص530

في فن الشعر فيلتزمه، أو في المقالة أو الخطابة أو في أي جنس آخر من أجناس الأدب، ولا يعني ذلك أن لا يفارق الأديب هذا الفن الذي يجيده إلي غيره، وإنما ينطلق في عطائه وفق طريقة سليمة محافظة لا تري فيها عوجا ولا أمتا، ولا تجد فيها مدخلا لناقد، ذلك لأن الأديب وطَّن نفسه علي أن لا يقول إلا الحق، وعلي أن لا تنزع عواطفه إلا إلي ما هو حق وصدق وخير.(1)

مفهوم الالتزام في الشرع:

هذا هو مفهوم الالتزام عند الأدباء عامة دون تفريق بين مسلم أو غير مسلم، أما مفهوم الالتزام عند المسلمين هو مفهوم نابع من تمسك والتزام الفرد بالكتاب والسنة النبوية علي صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم، وعليه يجب أن يكون الالتزام بجميع ما جاء به الإسلام من تعاليم، وفي شرح العمدة: من لم يلتزم جميع الإسلام فإنه يُقاتل وأيضا فإن الالتزام قد لا يحصل لقوله تعالي: (فإن تابوا) فان التائب من الكفر لا يكون تائبا حتى يقر بجميع ما جاء به الرسول ويلتزمه.(2)

ولذا أصبح لزاما علي المرء أن يلتزم في كلامه الصدق وما كان موافقا للكتاب والسنة، وأن يعي حقيقة ما يقول، ولذا أورد صاحب منهاج السنة قوله: الماهية التي يعنيها المتكلم بلفظه... دلالة لفظه عليها دلالة مطابقة.... ودلالته على ما دخل فيها دلالة تضمُّن... ودلالته على ما يلزمها وهو خارج عنها دلالة الالتزام.(3)

إن كل ما أوردناه من أقوال الباحثين يركز علي الالتزام ويبين أهميته، ونعرض هنا لما قاله صاحب التفسير الكبير عن الالتزام لنختم به هذه التعريفات التي لا تحصي في هذا المجال، يقول صاحب التفسير الكبير: اعلم أن المؤمن إذا آمن بالله فقد التزم شرائع الإسلام والإيمان وحينئذ يجب عليه أمران: أحدهما أن يصبر على ذلك الالتزام وأن لا يرجع عنه وأن لا ينقضه بعد ثبوته والثاني أن يأتي بكل ما هو من شرائع الإسلام ولوازمه.(4)

إن ما ذكرناه في بيان المثالية والواقعية والالتزام يكفي لكي يفهم القارئ ما

---

(1) من بدائع الأدب الإسلامي، للدكتور محمد بن سعد الدبل، من إصدارات نادي المدينة المنورة، رقم الكتاب (67)، دار البلاد للطباعة وانشر، جدة، من مقدمة الكتاب

(2) شرح العمدة في الفقه، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، مكتبة العبيكان، الرياض، 1413، الطبعة الأولى، تحقيق: د. سعود صالح العطيشان، ج4/ص61

(3) منهاج السنة النبوية لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، مؤسسة قرطبة، 1406، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، ج5/ص453

(4) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، لفخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1421هـ، 2000م، الطبعة الأولى، ج20/ص89

نورده في هذا البحث المتواضع من تطبيقات في هذا الجانب، ولما كانت المثالية والواقعية والالتزام يتعلمها الناس من المدرسة الأولي في هذا المجال وهي مدرسة النبوة التي جاء بها النبي محمد ﷺ، فأننا نجعل من هذه المدرسة هي الأنموذج لدراستنا، ولكن نطبق كل من المثالية والواقعية والالتزام، علي مدرسة الخلافة الأولي وهي لا شك خلافة بشر، ولكن يجري تطبيقها علي مدرسة خير من مشي علي الأرض بعد رسول الله ﷺ، ألا وهو الخليفة الراشد المبشر بالجنة وثاني اثنين إذ هما في الغار، أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

المبحث الثاني
الواقع المثالي والأمثلة الواقعية بين التقليد والتجريد

بعث الله جل وعلا نبيه محمدا ﷺ لكي يتأسى الناس به، وفي ذلك قال الله تعالي:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

(1) لقد قررت الآية الكريمة أن الأسوة الحسنة هو الرسول ﷺ، إذاً فالمسلمون تبعا لما مدحه رسولنا الكريم وأمر به، وينتهون ويجتنبون ما نهي عنه، ولذا كانت أقوال رسول الله ﷺ محل اهتمام المسلمين، فكانت الأخلاق مدار الحب والبغض عند رسول الله، ومجال القرب والبعد بينه وبين المسلمين، فانظر إلي قوله ﷺ (2)(إن من أحبكم إليَّ و أقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا و إن أبغضكم إليَّ و أبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا: قد علمنا "الثرثارون و المتشدقون" فما "المتفيهقون؟" قال: المتكبرون").(3)

رفيق الجاهلية والإسلام

كان أول من تأدب بآداب رسول الله ﷺ، صديقه في الجاهلية والإسلام أبا بكر الصديق رضي الله عنه، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ (خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ عَاصِبٌ رَأْسَهُ بِخِرْقَةٍ فَقَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ النَّاسِ أَحَدٌ أَمَنَّ عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ وَلَوْ

---

(1) الأحزاب 21

(2) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، لمحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1414هـ - 1993م، الطبعة الثانية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ج2، ص231.

(3) قال الألباني في "السلسلة الصحيحة" 2 / 434

كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ النَّاسِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنْ خُلَّةُ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ، سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ غَيْرَ خَوْخَةِ أَبِي بَكْرٍ) فكان أبو بكر الصديق أقرب الصحابة خصالا وأمثلهم أخلاقا وآدابا عند رسول الله وفي ذلك يقول حسان بن ثابت:

إذا تذكرت شجوا من أخى ثقة فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أوفاها وأعدلها بعد النبي وأولاها بما حملا
التالى الثاني المحمود مشهده وأول الناس منهم صدق الرسلا
والثاني اثنين في الغار المنيف وقد طاف العدو به إذ صعد الجبلا
وكان حب رسول الله قد علموا من البرية لم يعدل به رجلا
عاش حميدا لأمر الله متبعا بأمر صاحبه الماضي وما انتقلا[1]

عاش مخلصا وفيا لرسول الله:

لقد عاش أبو بكر الصديق مخلصا لله ورسوله، فكم كان مشمرا عن ساعد الجد ليفدي رسول الله بماله ودمه وعرضه، ولقد سطر له التاريخ في ذلك مواقف أدبية وأخلاقية تبين مدي حبه لصديقه في الجاهلية وأخيه في الإسلام، أورد صاحب كتاب مختصر سيرة رسول الله، عندما أراد رسول الله العمرة جاء بديل بن ورقاء في نفر خزاعة (وكانوا عيبة نصح لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم من أهل تهامة) فقال إني تركت ابن لؤي وعامر بن لؤي: قد نزلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال إنا لم نجئ لقتال أحد وإنما جئنا معتمرين، وإن قريشا نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم ويخلوا بيني وبين الناس، فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جمعوا، وإن أبوا إلا القتال فو الذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن اللَّه أمره.
قال بديل سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشا، فقال إني قد جئتكم من عند هذا الرجل وسمعته يقول قولا، فإن شئتم عرضته عليكم.
فقال سفهاؤهم لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم هات ما سمعته يقول قال سمعته يقول كذا وكذا.

اللات في مذبلة التاريخ:

فلما سمع عقلاء قريش قول بديل قال عروة بن مسعود إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آته، فقالوا: ائته، فأتاه، فجعل يكلمه، فقال له نحوا

(1) العقد الفريد، لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1420هـ - 1999م، الطبعة الثالثة، ج2،ص246.

من قوله لبديل، فقال عروة أي محمد أرأيت لو استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فو الله إني لأرى أو شابا من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك.

فقال أبو بكر: امصص بظر اللات أنحن نفر عنه وندعه؟.

قال عروة من ذا يا محمد؟ قال أبو بكر، قال أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي (لم أجزك بها) لأجبتك، [1] وكانت اللات من مقدسات العرب فأصبحت في مذبلة التاريخ بعد مجيء الإسلام.

ذاق وبال أمره:

لم يستخدم الصدِّيق رضي الله عنه ذلك الكلام جزافا ولكن كان شائعا بين ألسنة الأدباء ومجالس الخلفاء والحكام، فقد جاء في كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني: أن رجلا لقي آخر فقال له: إن الشعراء ثلاثة: شاعر، وشويعر، وماص بظر أمه، فأيهم أنت؟ قال: أما أنا فشويعر، واختصم أنت وامرؤ القيس في الباقي.[2]

نعم إن الكلمة (امصص...) متواترة الاستخدام ولكن استخدمت هنا بأسلوب النوادر إذ أن الرجل المسئول عن طبقته من الشعراء اختار لنفسه أن يكون شويعرا من صغار الشعراء، ولكنه اختار للسائل ما لا يطيق عندما وضعه مع امرئ القيس في سباق أدبي للشعر لأن النتيجة معروفة إذ أن امرئ القيس توجته العرب أميرا للشعر والشعراء، فما بقي للسائل إلا أن يذوق وبال أمره ويبوء باللقب الذي روجَّ له وهو المرتبة الثالثة والأخيرة من ترتيبه للشعراء.

أدب الطوارئ:

إن الإرث الثقافي والحضاري لعرب الجاهلية لم يكن خاليا من المثاليات التي أقرها الإسلام وقت الحاجة واللزوم، فأصبحت من مثاليات الأخلاق الحميدة التي يلجأ إليها الأديب عند الضرورة القصوى لبيان أمر واقعي مما يجعل هذا النوع من الأدب ينضوي تحت طائلة أدب الطوارئ، ومن هنا كانت المثالية في الأدب العربي والإسلامي نبعا أخلاقيا تنهل منه مختلف القيم في المجتمعات الإنسانية

بين يدي المأمون وعلى بساط الأدب:

ويمثل ذلك الأدب الذي سميناه أدب الضرورة أو أدب الطوارئ حديث

(1) مختصر سيرة الرسول ﷺ، الإمام محمد بن عبد الوهاب، الطبعة الأولى،1418هـ، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ص269.

(2) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني، ص35.

الصولي عندما قال: قال أبو العتاهية لثمامة (بين يدي المأمون) وكان كثيرا ما يعارضه بقوله في الإجبار: أسألك عن مسالة، فقال له المأمون: عليك بشعرك، فقال: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في مسألته ويأمره بإجابتي! فقال له: أجبه إذا سألك، فقال: أنا أقول: إن كل ما فعله العباد من خير وشر فهو من الله، وأنت تأبى ذلك، فمن حرك يدي هذه؟ وجعل أبو العتاهية يحركها، فقال له ثمامة: حركها من أمه زانية، فقال: شتمني والله يا أمير المؤمنين، فقال ثمامة: ناقض الماص بظر أمه والله يا أمير المؤمنين! فضحك المأمون وقال له: ألم أقل لك أن تشتغل بشعرك وتدع ما ليس من عملك! قال ثمامة: فلقيني بعد ذلك فقال لي: يا أبا معن، أما أغناك الجواب عن السفه؟! فقلت: إن من أتم الكلام ما قطع الحجة، وعاقب على الإساءة وشفي من الغيظ، وانتصر من الجاهل.[1]

فهذا شاعر المأمون وأديبه ثمامة قال بين يدي الأمير وفي البلاط الملكي (الماص بظر أمه) قالها ليس لواحد من عوام الناس وإنما لرجل يشار إليه بالبنان ومن كبار مشاهير الشعراء هو أبو العتاهية، فكان ذلك من شتات المثاليات المتناثرة في البيئات الاجتماعية العربية علي مر العصور، والتي كانت تتعاهدها العرب بالاحترام والإعجاب وتعدها من العادات والتقاليد.

إذن لقد كان استخدام صاحب رسول الله أبي بكر لهذه العبارة من استخدام الأدباء، وهو هنا كما قال ثمامة (إن من أتم الكلام ما قطع الحجة، وعاقب على الإساءة وشفي من الغيظ، وانتصر من الجاهل) فكان رد أبي بكر إلجاما لعروة بن مسعود الذي زعم أن أصحاب رسولنا الكريم يفكرون في الفرار من عنده، فأنغض عليه أبو بكر بهجوم مباقت عالج به أمرا واقعا فبُهت عروة، ولذا كانت المثالية من أوضح الصور الأدبية التي تضبط القيم الأخلاقية في مسار الحياة البشرية.

ولقد بات الأدب الإسلامي يمتلك المقدرة البرهانية العالية علي التفوق النوعي بين زحام المثل غير الشرعية، وله الريادة والسيادة في البروز المتميز أمام التحديات المنظمة، والصعاب والعقبات الموجه، وفي الأغاني: إن المأمون لما أدخل عليه علي بن جبلة قال له: إني لست أستحل دمك لتفضيلك أبا دلف على العرب كلها وإدخالك في ذلك قريشاً وهم آل رسول الله ﷺ وعترته، ولكني أستحله بقولك في شعرك وكفرك حيث تقول القول الذي أشركت فيه:

أنت الذي تنزل الأيام منـزلها وتنقل الـدهر من حـال إلى

(1) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، تحقيق: علي مهنا وسمير جابر، ج4، ص9.

حال

وما مددت مدى طرف إلى أحد إلا قضيت بأرزاق وآجال

كذبت يا ماص بظر أمه، ما يقدر على ذلك أحد إلا الله عز وجل الملك الواحد القهار، سلوا لسانه من قفاه[1]، ولقد أمر المأمون أن يسل لسانه لكفره، وفوق ذلك نجد أمير المؤمنين استخدم نفس العبارة التي كان متعارفا عليها في أدب العرب وبين مجالس الحكام، ولذا يمكننا القول أن الأدب الإسلامي قد تمدد عبر القيم الأدبية والأخلاقية المنظومة شعرا، والمعاني الأخلاقية المرسومة نثرا، في ظل التوجهات القرآنية والتعاليم النبوية.

جوشانة فرعون:

إن المنصور قتل فضيل بن عمران الكوفي مؤدب ولده جعفر ظلماً، واتصل خبر قتله بجعفر بن أبي جعفر المنصور، فطلب من أُمِر بقتله، فلما جيء به، قال له: ويلك، ما يقول أمير المؤمنين في قتل رجل مسلم بغير جرم؟ فقال له الريان: هو أمير المؤمنين، يفعل ما يشاء.

فقال له جعفر: يا ماص بظر أمه، أكلمك بكلام الخاصة، فتكلمني بكلام العامة جروا برجله، فألقوه في دجلة.

قال الريان: فأخذوا والله برجلي، فقلت: أكلمك بكلمة، ثم اعمل ما شئت.

فقال: ردوه، فرددت، فقال: قل.

فقلت له: أبوك إنما يسأل عن قتل فضيل بن عمران وحده؟ ومتى يسأل عنه، وقد قتل عمه عبد الله بن علي، وقتل عبد الله بن الحسن، وعشرات من أولاد رسول الله ﷺ، وقد قتل من أهل الدنيا ما لا يحصى ولا يعد، هو إلى أن يسأل عن فضيل بن عمران جوشانة (جرذانة) تحت خصى فرعون.

قال: فضحك جعفر، وقال: خلوا عنه، لعنه الله، فأفلت منه.[2]

فالريان قد أفلت من أن يلقي في أليم في نهر دجلة مستخدما في ذلك مركبة الأدباء في ابتزاز الحكام فوصل إلي بر الأمان ولكنه لم ينجو من لعنة أمير المؤمنين جعفر، بعد أن أجري عليه سنة الأدباء في لعن المفسدين عندما قال له يا ماص بظر أمه، أكلمك بكلام الخاصة، فتكلمني بكلام العامة؟.

(1) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، : عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبو الفرج، دار صادر، بيروت، 1358، الطبعة الأولى، ج10، ص259.

(2) الفرج بعد الشدة، للقاضي التنوخي ص155

وهكذا ظل الواقع المثالي ممهورا بالأمثلة الواقعية بين تقليد الأدب العربي القديم تارة، وتجريده من ثوبه الموروث تارة أخري بحسب ما تقتضيه المواقف الأدبية، ليظل العقل البشري والفكر الإنساني محافظا علي فطرته السليمة في كثير من المواقف الاجتماعية والحضارية علي مر الزمان والعصور، وبذلك تكون الواقعية من أوضح الصور الأدبية التي تضبط القيم الأخلاقية في مسار الحياة البشرية؟.

نعم لقد أفلت الريان من جعفر المنصور ولكن بعد أن استخدم سلاحا من نوع آخر وهو خصي فرعون وما يليها، عندما قال: هو إلى أن يسأل عن فضيل بن عمران (جوشانة تحت خصى فرعون) وفي رواية: (هو قبل أن يسأل عن فضيل جرذانة تجب خصى فرعون قال فضحك وقال دعوه إلى لعنة الله) ولقد ذكر القصة كاملة الإمام الطبري في تاريخه.[1]

والجوشانة هنا لا يحسبها أحد إلا قرادة، ولكنها آوت إلي ركن شديد، فلقد قصد الريان إثارة غضب المنصور حتي يترك معاقبته ترفعا عن الانتصار لنفسه، فلذا جعل القرادة حيث علمتم، فهي علي هوانها وتطفلها ضيَّفت نفسها بمكان لا يرتاده أمثالها إلا في حمار أو بعير أو كلب، ولعلها أُلهمت بأن فرعون من أمثال هؤلاء، ولقد جاء في أمثال العرب قولها:

هو أهون من قرادة الجلم، ومن ذباب، ومن حُندُج، ومن الشعر الساقط، ومن حثالة القرظ، ومن ضرطة الجمل، ومن ذنب الحمار على البيطار.[2]

ومع كون القراد من ما تضجرت منه العرب إلا أنها استخدمته في المدح، فانظر إلي الحطيئة أين جعل القراد؟.... عندما مدح بني رياح بن ربيعة بن مازن إذ يقول:

وليس الجارُ جارُ بنِي رياحِ بمقصيٍّ في المحلِّ ولا مضاع

هم صنعوا لجارهمُ وليست يدُ الخرقاءِ مثلَ يدِ الصناع

ويحرمُ سر جارتهم عليهم ويأكلُ جارهم أنفَ القصاع

لعمركَ ما قرادُ بني رياحِ إذا نُزعَ القراد بمستطاعِ[3]

(1)تاريخ الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ج4/ص539.

(2) مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، ج2، ص409.

(3)ديوان الحطيئة، ج1، ص87. (مختارات شعراء العرب، لابن الشجري)

لا عجب في قول الريان أن ينزل القراد من فرعون منزلة تنجيه من القتل، عندما تركه جعفر المنصور بعد أن لعنه وهو يلعن فرعون إذ يساويه بالحيوان ومنه الكلب الأسود وهو شيطان يحول بين العبد وصلاته كما يحول فرعون بين العباد وعبادة ربهم، ففي مصنف عبد الرزاق عن معمر عمن سمع الحسن يقول: صلى الحكم الغفاري بأصحابه وقد ركز بين يديه رمحا فمر بين أيديهم كلب أو حمار فانصرف إلى أصحابه فقال أما إنه لم يقطع صلاتي ولكنه قطع صلاتكم فأعاد بهم الصلاة.[1]

من آل فرعون :

لقد أصبحت تلكم الجراذة من آل فرعون بعد أن قُيِّض لها أن تعيش وتعمِّر تحته آمنة مع وطأة الظلم والاستعلاء لتسمع من فرعون وملأه الأسرار واللعنات، قالت العرب في أمثالها:

أسمع من قراد، وذلك (لزعمهم) أنه يسمع وطء أخفاف الإبل من مسيرة يوم، فيتحرك لها، قال أبو زياد الأعرابي: ربما رحل الناس عن ديارهم بالبادية وتركوها قفاراً، والقردان منتشرة في أعطان الإبل، ثم لا يعودون إليها عشر سنين وعشرين سنة، ولا يخلفهم فيها أحد سواهم، ثم يرجعون إليها فيجدون القردان في تلك المواضع أحياء، وقد أحست بروائح الإبل قبل أن توافي فتتحرك لها، ولذلك قالت العرب: أعمر من قراد، وقال حمزة: العرب تزعم أن القراد يعيش سبعمائة سنة، وهذا من أكاذيبهم،

(1) مصنف عبد الرزاق لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المكتب الإسلامي، بيروت، 1403، الطبعة: الثانية، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، ج2/ص18.

وإنما الضجر منهم به دعاهم إلى هذا القول فيه.[1]

ناقوس الخطر :

إن القرادة أو الجوشانة عند العرب في الجاهلية لها قيم ومثل، فلذلك ضُربت بها المثل في طول العيش والتعمير فقيل أعمر من قراد كما مر، وأعطتها العرب فوق ذلك الإحساس والاستشعار بحركة ما هو آت قبل وقت طويل، وبذلك يحق لجوشانة فرعون أن تدق ناقوس الخطر من مأمنها إذا أحست بالخطر يحدق بها، ولا أظنها قد انعتقت من الأخطار، لأن فرعون ما زال في خطر حتى ابتلعه اليم، ولذا كان من مثاليات العرب في هذا الجانب أن لا يأمن الناس نوائب الدهر، وفي محاضرات الأدباء: قيل ما أمتع الدهر إلا ليمنع، ولولا اغترار الجاهل بفوائده لخلت النفوس من الحسرة على نوائبه، وقيل لا تخل قلبك من عوارض الفكر وخواطر الذكر فيما تعروك به الأيام من ارتجاع ودائعها، وحلول وقائعها، وقيل من كان متوقعا لم يلف متوجعا.[2]
قال ابن الرومي:

ألم تر رزء الدهر من قبل كونه كفاحا إذا فكرت في الخلوات
فما لك كالمرمي في مأمن له بنبل أتته غير مرتقبات
فإن قلت مكروه أتاني فجأة فما فرحت نفس مع الخطوات
ولا عوفصت نفس لبلوى وقد رأتعظات من الأيام بعد عظات
إذا بغتت أشياء قد كان مثلها قديما فلا تعتدها بغتات[3]

هذا ابن الر ومي يصور لنا تقلب الدهر وتلونه وأنه لا يقر علي حال، وهو لم يذهب بعيدا فيما ذكر، فلقد ركنت العرب إلي مثلها والتزمتها في وقت غابت فيه مصادر القيم الروحية إلا بصيصا، وفي ظل غياب المثالية يصبح الالتزام مطية

(1) مجمع الأمثال، أبي الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، ج2، ص50.
(2) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، لأبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، دار القلم، بيروت، 1420هـ- 1999م، تحقيق: عمر الطباع، ج2/ص525.
(3) ديوان ابن الرومي ج1، ص887.

للتعمية الأدبية ومحورا لتغيير مسار المفاهيم الأخلاقية، ولا يخلو الالتزام بين الناس من خلل أو زلل بالنظر إلي الفطرة المثالية عند البشر الذين جبلهم الله علي الخطأ إلا أن يتوبوا ويستغفروا.

مرجع العفة والأخلاق:

لقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه صاحب أخلاق عالية في الجاهلية والإسلام فعن عائشة رضي الله عنها قالت: والله ما قال أبو بكر شعراً قط في جاهلية ولا إسلام ولقد ترك هو وعثمان شرب الخمر في الجاهلية، ولقد كان حرَّم أبو بكر الخمر على نفسه في الجاهلية، وما قال أبو بكر شعراً قط، وقيل لأبي بكر الصديق في مجمع من أصحاب رسول الله ﷺ هل شربت الخمر في الجاهلية؟ فقال: أعوذ بالله.... فقيل ولم؟..... قال: كنت أصون عرضي واحفظ مروءتي فإن من شرب الخمر كان مضيعاً في عرضه ومروءته قال: فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: صدق أبو بكر صدق أبو بكر مرتين.[1]

لقد صار أبو بكر بذلك من مراجع العفة والأخلاق في الجاهلية والإسلام، بما يبين أن الإرث الحضاري لعرب الجاهلية لم يكن خاليا من المثاليات التي أقرها الإسلام، فأصبحت من رفيع الأخلاق الحميدة، والقيم الروحية الإسلامية الراسخة في معالم الإنسانية، وهكذا كانت تلك المثاليات وما زالت الآلية النافذة التي كسرت حاجز الانسداد الأدبي والأخلاقي أمام التاريخ في وقت لم تضح فيه رؤي ومعالم الأدب الإسلامي، فكان أدب أبي بكر الصديق رضي الله عنه نبعا أخلاقيا تنهل منه مختلف القيم في المجتمعات الإنسانية.

مقتضي الأخلاق:

وبالعودة إلي رد أبي بكر المفاجئ، لعروة عندما قال (امصص بظر اللات أنحن نفر عنه وندعه) لقد قال أبو بكر كلاما لم يعرف عنه حتى في الجاهلية، ولقد رأينا من أخلاقه التي سطرها التاريخ في العصر الجاهلي، إنه مقتضي الأخلاق والالتزام الأدبي، والمثالية الأدبية، والواقعية الدفاعية، التي لا مجاملة فيها، فشتان بين عاقل وسفيه، فهذا عروة يسأل الرسول عن المهاجم الذي حمَّله ما لا يطيق!..... فأنَّي لكفار قريش التعدي علي اللات،..... فمن هي صاحبة البظر المقدس؟.... قال الله تعالي: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا

(1) تاريخ الخلفاء، لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، مطبعة السعادة، مصر، 1371هـ، 1952م ، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ج1، ص32.

قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿[1]

يقول تعالى ذكره: أفرأيتم أيها المشركون اللات، وهي من الله ألحقت فيه التاء فأنثت، كما قيل عمرو للذكر، وللأنثى عمرة; وكما قيل للذكر عباس، ثم قيل للأنثى عباسة، فكذلك سمى المشركون أوثانهم بأسماء الله تعالى ذكره، وتقدّست أسماؤه، فقالوا من الله اللات، ومن العزيز العُزَّى; وزعموا أنهن بنات الله، تعالى الله عما يقولون وافتروا، فقال جلّ ثناؤه لهم: أفرأيتم أيها الزاعمون أن اللات والعُزَّى ومناة الثالثة بنات الله (أَلَكُمُ الذَّكَرُ) يقول: أتختارون لأنفسكم الذكر من الأولاد وتكرهون لها الأنثى، وتجعلونَ(لَهُ الأُنْثَى) التي لا ترضونها لأنفسكم، ولكنكم تقتلونها كراهة منكم لهنّ.[2]

رغمت أُنوف القوم:

إذاً فاللات ضرب من الخيال جعله المشركون في الجاهلية موضع المثالية، ودانوا له بالالتزام، وسموا به فوق دنيا الأحلام وأنزلوه منزلة الواقعية، وهذا ما جعل عروة يهم بالرد علي أبي بكر، لولا معروفا أسداه الصديق لعروة فقعد ذلك المعروف ببظر اللات.

إن الذي سامه الصديق من مقدسات المشركين أمر لا يستهان به عندهم، وليس لهم اللعب حول ذلك الحمي ولا أن يلقوا بأيديهم إلي التهلكة، فكيف يحملهم صاحب رسول الله لكي يضعوا أنوفهم هناك.....، فما جزاء من يفعل ذلك منهم إلا أن تُخسف به الأرض أو تهوي به الريح في مكان سحيق..... فرغمت أُنوفهم تواضعا للات،ومن هنا يتبين أن بالإمكان أن يكون الالتزام مطية للتعمية الأدبية ومحورا لتغيير مسار المثل الأدبية والمفاهيم الأخلاقية؟.

اللَّات تفرُّ بجلدها:

سار رسول الله ﷺ حتى دخل مكة من أعلاها، وتجمع سفهاء قريش عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو بالخندمة ليقاتلوا، وكان حماس بن قيس يُعِدَّ السلاح قبل مجيء رسول الله ﷺ، فقالت له امرأته: والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء فقال: والله إني لأرجو أن أخدمك بعضهم،.... ثم شهد الخندمة، فلما لقيهم المسلمون انهزم المشركون، فدخل حماس على امرأته، فقال: اغلقي علي بابي،

(1) الآيات من سورة النجم

(2)جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، الطبعة الأولى، 1420 هـ - 2000 م، مؤسسة الرسالة، تحقيق أحمد محمد شاكر ، ج22، ص522

فقالت: وأين ما كنت تقول؟... فقال:

إنك لو شهدت يوم الخندمه إذ فـــر صفوان وفر عكرمة
وأبو يــزيد قائم كالمـؤتمه واستقبلتنا بالسيوف المســلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة ضربا فلا يسمع إلا غــمــغمه
لهــم نهيت خلفنا وهمهمة لم تنطقي باللوم أدنـــى كلمه[1]

لم تبرأ جراح سفير المشركين عروة التي أصابته جراء دفاعه عن اللات أمام أبي بكر، حتي فجعته هذه المرة اللات بتفسها عندما فرت وتركت أصحابه: عكرمة وصفوان وسهيل وحماس ينهزمون امام جيش محمد .. وهم الذين اقسموا باللات ان يكون النصر حليفهم، لعلهم كانوا يريدون رد الشرف إليها.

الأحلام المضحكة:

انظر إلي حماس بن قيس خبير الأسلحة عند المشركين: (قالت له امرأته: والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء فقال: والله إني لأرجو أن أُخْدِمك بعضهم)، لقد أقسما واثِقَين من النصر فامرأته تقول والله وهو اللات (محرفا) عندهم كما مر معنا في تفسير الطبري، أن لا يقوم لمحمد وأصحابه شيء، وكذلك زوجها (حماس) يقسم أن يخدمها بعض أصحاب رسول الله، وفيهم خالد بن الوليد والزبير بن العوام وأبو بكر الصديق، فكم كان متفائلا أكثر مما يجب، إنها لآمال عراض وأحلام مضحكة.

جاء في مناهل العرفان: وهل أتاك نبأ الخصم إذ هموا أن يعارضوا القرآن فكان ما أتوا به باسم المعارضة لا يخرج عن أن يكون محاولات مضحكة مخجلة أخجلتهم أمام الجماهير وأضحكت الجماهير منهم فباؤوا بغضب من الله وسخط من الناس وكان مصرعهم هذا كسبا جديدا للحق وبرهانا ماديا على أن القرآن كلام الله القادر وحده لا يستطيع معارضته إنسان ولا جان ومن ارتاب فأمامه الميدان.[2]

علي ساقي نعامة وجناحي طائر:

لقد شهد حماس موقعة الخندمة وعاد ليروي لصاحبته مشاهد من أرض المعركة (مسرح العمليات) فأمرها أولا أن تغلق الباب دونه، فسألته عن الوفاء بعهده (وأين ما كنت تقول) فأخذ يروي لها كيف أنه فر بجلده وقد أطلق ساقيه إلي الريح، يتقدمه صفوان وقد سار علي ساقي نعامة، وأمامهما عكرمة يحلق في الفضاء، نعم لقد

(1)مختصر سيرة الرسول ﷺ، الإمام محمد بن عبد الوهاب، الطبعة الأولى،1418هـ، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ص301

(2)مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني، دار الفكر، لبنان، 1416هـ- 1996م، الطبعة: الأولى، ج2/ص241.

فر القوم بجلودهم وبقيت القصة المضحكة وفي ذلك يقول الشاعر:

قصتي يا سادتي مضحكة بينكم من حيث يبكى بالمقل
إن أجئكم بغريب قلتم عندنا أغرب فاسكت أو فقل
أبصر النصال درا غاليا قال عندي منه أغلى وأجل[1]

فساءٌ قد أُردف بغائط:

إن وصيفة أمير الحرب كانت تتطلع لوجود خالد بن الوليد أو أحد الصحابة خادما في بيتها، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[2].

فكان من صنعه تعالى: أنه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصارًا وأعوانًا وجندا، يقاتلون في سبيل الله، ولم يزل يرقِّيه الله تعالى من شيء إلى شيء، حتى فتح له مكة التي أخرجته، ومكن له فيها، وأرغم آناف أعدائه منهم، ومن سائر أهل الأرض، حتى دخل الناس في دين الله أفواجا، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان، في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان.[3]

فما كان وعد حماس لزوجته إلا فساءً قد أُردف بغائط، ليوافق المثل العربي "حزق عيرٍ": أي ضراط حمار: يضرب للأمر غير المحكم.[4]

من وراء الأحلام:

لقد علمت العرب أن تعاطيها المباشر لشئون الفساء والغائط قد يحملها ما لا تطيف، ولما كانت لا غنى لها عن ذلك نجدها قد خصصت له مكانا وراء الأحلام تيمنا بذلك الحدث، فكانت لا تترك طيف أحلامها في هذا الشأن يمر دون أن ترفع من قدره وتضعه مواضع الفأل الحسن، يقول صاحب تعطير الأنام في تعبير المنام:

الغائط هو في المنام مالف من رأى أنه تغوط غائطا صلبا جامدا فإنه ينفق مالا في صحة جسم، والغائط السائل يدل على النفقة الكبيرة، ومن تغوط والناس

---

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لأبي الحسن علي بن بسام الشنتريني، دار الثقافة، بيروت، 1417هـ- 1997م، تحقيق: إحسان عباس، ج2/ص896.

(2) الأنفال 30

(3) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 1420هـ - 1999م، ج4، ص483

(4) المستقصي في أمثال العرب، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م، الطبعة: الثانية، ج2، ص62.

ينظرون إليه فليحذر من فضيحة تبدو منه أوكلام قبيح،ومن تغوط من غير قصد من هو أخذ الغائط وحمله فإنه يأخذ دنانير بقدر ذلك الغائط، ومن رأى أنه يأكل الخبز والغائط فإنه يأكل الخبز والعسل.[1]

انظر إلي هذا المؤلف فكم يزعم أنه قد عطر الأنام بهذه الأسطر من كتابه (تعطير الأنام في تعبير المنام) عندما تعامل مع الغائط بجدية تجعل الكثير من الناس يتمني لو أنه فعل ذلك في منامه من وراء الأحلام، ولكن آخر كلمة من حديث المؤلف في المقطع أعلاه لا تطاق يقظة ... فتأمل.

لقد باءت آداب وأذناب العصر الجاهلي بالفشل أمام تحديات القرآن الكريم، ومعجزات سنة النبي محمد ﷺ، من واقع تجربة الصديق رضي الله عنه، الذي قضي علي الالتزام والاعتقاد غير المشروع في اللات، والذي كان مطية من قبل المشركين للتعمية الأدبية ومحورا لتغيير مسار المفاهيم الأخلاقية.

أفسى العرب:

مما هو معلوم بالضرورة إن من مقدمات التغوط الفساء فمن أكثر الفساء فحري به أن يأتي بالآخَر وهذا أمر فيه سعة،... ولقد استخدمت العرب الفساء والضراط في شعرها ونثرها، ومعاملاتها وأمثالها، لأنه كان جزءً من مثالياتها..... ومن ذلك قولهم في المثل: "هو أخسر صفقة من شيخ مهوٍ" وهو بطن من عبد القيس بن أفصى، وكان من خبره:

إن إياداً كانت أفسى العرب، فوفد وافدهم إلى الموسم بسوق عكاظ ومعه حلة نفيسة فقال: يا معشر العرب، من يشتري مني مثلبة قومٍ لا تضره بحلتي هذه؟ فقال الشيخ المهوى: أنا أشتريها، فقال الإيادي: أشهدكم يا معشر العرب أني قد بعت فساء إيادٍ لوافد عبد القيس بحلتي هذه، وتصافحا متراضين وقد شهد عليهما أهل الموسم، فتنفست أياد الصعداء وصارت عبد القيس أفسى العرب، وقيل لابن مناذرٍ: كيف الطريق إلى عبد القيس؟ فقال شم ومر:

فإن عبد القيس من لؤمها تفســـو فساءً ريحه تعبق
من كان لا يدري لها منزلاً فقل له يمشي ويستنشق[2]

لم تخل بيئات العرب الاجتماعية من المثل والقيم الأدبية، فهي لها التزاماتها الأدبية والأخلاقية التي كانت محل اتفاق أدبي بين مختلف القبائل وفي أشهر

(1) تعطيرالأنام في تعبير المنام،لعبد الغني النابلسي،دار الفكر، بيروت، ج1/ص258
(2) معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، لأبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411ه، 1991م، الطبعة الأولى، ج2ن ص81.

مؤتمراتها الموسمية الحج وفي أشرف البقاع عندها مكة المكرمة.

ما كان للاحتراف والشهرة:

انظر إلي هذه الصفقة من معاملات العرب فها هي أياد تخلصت من فسائها (إلا اللمم) في صفقة مشهودة، عبرها قد أودعت أدراج الرياح كل ما زاد من فسائها إلي حد الاحتراف والشهرة، ثم إن عبد الغيث عاهدت حليفا مألوفا (الفساء)، ويمكنها أن تحلف صادقة أن ما ظفرت به في الموسم هو قاسم مشترك بين جميع العرب والعجم، وأنه قد ترك بصماته طواعية أو كرها في كل إنسان وما زال يتحدى الجميع، فكان عاقل عبد الغيث قد اختار طائعا الشهرة في أمر قد لصق بالجميع، ولم ينج منه صغير أو كبير، رجل أو امرأة، قال البستي أنشدت لأبي عيسى:

لنا شيخٌ بفسوته يواسي ويحلق شاربيه بالمواسي
إذا بايتهُ من جوف بيتٍ فسا يفسو فساءً فهو فاسي[1]

وفي يتيمة الدهر للثعالبي، يقول الشاعر:

أمعاؤها أوتارها وبطونها أعوادها واللحن رجع ضراط
أو يرقدوا فحلوقهم وأنوفهم ممّا تغطّ كحقة الخرّاط
وخلال ذلك يسمعونك كارهاً صوت الضراط كمثل شقّ رباط[2]

وقال الثعالبي:

فسا على قوم فقالوا له إن لم تقم من بيننا قمنا
فقال لا عدت فقالوا له من نتن فيه ذا كما كنا[3]

وهكذا فإن أدباء العرب لم يألوا جهدا في إعطاء الفساء حقه في أشعارهم بعد أن فرض نفسه علي الجميع بصفاته المعلومة، فكانت المثالية الواقعية حليف جميع الأدباء من العرب والعجم، أما المثالية الأدبية في هذا الشأن فقد كانت من نصيب بني عبد القيس، وأما الالتزام في ذلك فالجميع أدباء في هذا الشأن، فإن ذلك من الأدب والأخلاق، وإن كان لا يصلح للارتقاء مراقي الشعراء والكتاب.

سفير القوم:

كانت المثالية الأدبية لدي العرب الالتزام والاعتراف بما قررته بحق أيَّة قبيلة

(1) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1403ه، 1983م، الطبعة الأولى، تحقيق د. مفيد محمد قمحية، ج2، ص455.

(2) يتيمة الدهر، للثعالبي، ج4، ص140.(المرجع السابق)

(3) معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، لأبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411ه، 1991م، الطبعة: الأولى، ج5، ص140.

منهم، ولذا كانت تلكم الراية الأدبية شعارا اجتماعيا ظلت تحمله قبيلة أياد حتى أصبح مثلبة في حقهم وضاقوا به زرعا، فجاء سفيرهم مبعوثا لحضور المجمع الأدبي السنوي في عكاظ وفي جعبته أجندة القوم الذين تبرموا من هاجز فعالهم وأهل مكة أدرى بشعابها، فما كان من سفير القوم إلا أن وقف بين الناس في ذلك المؤتمر ما بين متحفز ومتحرز، ومعه حلة نفيسة فقال: يا معشر العرب، من يشتري مني مثلبة قومٍ لا تضره بحلتي هذه؟، لقد سماها مثلبة وهي عكس المنقبة، وكانت المثالب عند العرب محل هجاء مثلما كانت المناقب محل مدح وثناء، ففي نكث الهميان في نكت العميان عندما هجا أبو إسحاق بن خنيس أبا محمد المكفوف أجابه بقوله:

إن الخنيسي يهجوني لأرفعه اخسأ خنيس فإني لست أهجوكا
لم تبق مثلبة تحصى إذا جمعت من المثالب إلا كلها فيكا[1]

نعم إن المثالب كانت وما زالت تجلب الهجاء لصاحبها، ولما كان فساء إياد مثلبة تفر منها العرب أعدت لذلك الثمن وهو حلة نفيسة لتقري بها ما يهون عليه ذلك اللقب، فقبل بها الشيخ المهوى وهو علي علم تام بتبعاتها، فخسر صفقة تلك الراية المنتنة، وفوق ذلك ألصقت به العرب مثلا سائرا وهو قولهم "هو أخسر صفقة من شيخ مهوٍ" فكانت حلة الشيخ إذا لبسها أعجبك مظهره وطردك مخبره، فكان بمنزلة نافخ الكير، فهذه هي المثالية الأدبية عند العرب بالتزاماتها النادرة، وفي هذا المعني يقول الشاعر خليل مطران:

يرى منه في كل معنى طريف على كل مفخرة قيم
ويبغي لمته خير ما يروم الحكيم الذي يحكم
فينفعها رأيه المجتني وينفعها غرسه المطعم
ويبني الصروح لعيائها بناء على الدهر لا يهدم

(1) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، المكتبة العصرية، لبنان، صيدا، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج2، ص63.

ففي كل منتجع لرقيله معهد وله معلم[1]

هاجس الإهانة والهزيمة:

انهزم جيش المشركين بفعل المثالية التي كانت تنتظم حياة الصحابة رضي الله عنهم، من واقع الالتزام الذي كان يتجلى في طاعة أمر رسول الله ﷺ عندما قال (وإن أبوا إلا القتال فو الذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن اللَّه أمره)....

قال الرسول هذا الكلام عندما جاء عروة إلي رسول الله وهاجمه أبو بكر رضي الله عنه دفاعا عن الرسول الكريم مر ذكره آنفا: وسار رسول الله ﷺ حتى دخل مكة من أعلاها، وأمر خالد بن الوليد فدخلها من أسفلها، وقال: (إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصدا، حتى توافوني على الصفا) فما عرض لهم أحد إلا أناموه.[2]

فكم كان هاجس إهانة اللات سببا في هزيمة أعداء الله؟... انظر إلي الفرق بين المثالية والالتزام بين المسلمين وأعداء الإسلام، لقد التزم المشركون قيما متوارثة هي عندهم من أهم القيم الإنسانية التي تتوارثها الأمم من الآداب والأخلاق جيلا بعد جيل، ولكنها كانت تفتقر إلي التفسير المثالي الذي يقنع العقل البشري لذا أورد الله جل شأنه سيرتهم في القرآن وبين مبادئهم المتذبذبة ومفاهيمهم المتحركة من واقع الإرث الحضاري الموروث لأهل مكة المكرمة ففي قصة إبراهيم عليه السلام في مكة قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ

(1) ديوان خليل جبران ج1/ص2037

(2) مختصر سيرة الرسول ﷺ، الإمام محمد بن عبد الوهاب، الطبعة الأولى،1418هـ، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ص301

ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[1]

فهذه الآيات ناطقة بالفراغ الروحي لعرب الجاهلية من المثل الشرعية، لأن القيم الحقيقية لا يؤثر عليها مر الزمان وتعاقب الدهور، ولذا كانت الأديان السماوية من أهم ما يمثل تلك القيم لأنها تزكي روح المثالية، وتدعو إلي تحكيم العقل لاستيعاب كل ما هو منطقي تكريسا لدور الأمر الواقع، وتمهيدا لقبول كل ما يصون ويحترم العقل الإنساني، للوصول إلي جميع الحقائق المحيطة بالمجتمع البشري، والالتزام بفضائلها طواعية، وإنجاز أهدافها عن قناعة نابعة عن الفكر الإنساني، وتبنّي منهاجها ورعايته بالحجة والبرهان، بفضل ما وهبه الله لعباده من عقول نيرة وفطرة سليمة.

ولا بد من القول بأن المرجعية الشرعية للحضارات والثقافات العالمية لا بد أن تستمد جذورها من الآداب والقيم الأخلاقية والروحية للإسلام،ليتحقق للجميع أن

(1) الأنبياء

المنهاج الذي جاءت به الرسل هو المنهاج المثالي الذي يجب أن يلتزمه الناس من بعدهم، لتكون تعاليم السماء هي الموجه الأول للمجتمعات البشرية، وأسمي القيم ثباتا أمام التيارات الحضارية والمتغيرات الثقافية.

الشفافية والضبابية:

ونحن في سياق المرافعة الأدبية عن صاحب رسول الله أبي بكر في استخدامه كلمة قد يراها البعض في يومنا هذا خروجا عن المألوف، كان لا بد من بسط القول بكل شفافية حتى يتبين الأدباء البعد الأخلاقي لدعاة الإسلام في إماطة اللثام عن ما هو غامض، ونفض الغبار عن ما علقت به الشوائب، وذلك بوضع حد للصورة الضبابية التي قد تَعْلَق بالأذهان بشأن أمر يعرفه الناس في الجاهلية والإسلام، لذا أوردنا نماذج من أدب ذلك الزمان، دعما للحج والبراهين التي نستدل بها ودمغا لحجج خصوم الإسلام، وفي كل ذلك كان الإسلام وآدابه السمحة من القرآن الكريم وسنة نبينا محمد ﷺ هو الذي يقوم بالدفاع والمرافعة عن صاحب رسول الله وخير من مشي علي الأرض من بعده، وفي دستور العلماء يقول القاضي الأحمدي:

عليك أن تعلم أن القضاء في اصطلاح الفقهاء عبارة عن حكم القاضي عندالمرافعة، يعني إذا اختصم رجلان ثم حكم القاضي بالبينة والحجج الشرعية بأمر بينهما،فهذا الحكم قضاء عندهم.[1]

ولقد زيلت هذا البحث المتواضع بخلاصة ونتائج وتوصيات هي محاولة لحشد همم القراء والكتاب للتوجه نحو تأصيل الأدب الإسلامي الذي هو مسئولية الأمة

(1) دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، للقاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، 1421هـ، 2000م، الطبعة الأولى، تحقيق، عرب عباراته الفارسية، حسن هاني فحص، ج3/ص54.

الإسلامية في البيئات المختلفة.

الخلاصة

إن المثالية في الآداب هي من أوثق عري الأخلاق وتعتبر من أهم الثوابت المحورية التي تدور حولها معاني الواقعية والالتزام، أما مثاليات الأدب الإسلامي فهي الأنموذج الأصل الذي يجب أن تتعاهده كل القيم الروحية والمادية التي عادة ما تكون تابعة بالتكيف مع ما ترتضيه النفس من ميولات ومؤثرات بما يشكل نبعا أخلاقيا تنهل منه مختلف القيم في المجتمعات الإنسانية.

إن الإرث الإنساني الكبير من القيم والمثل التي توارثتها الأمم عبر الأجيال، نجده ماثلا في الأديان السماوية التي تدعو لتحكيم العقل للوصول إلي الحقائق المحيطة بالمجتمع البشري، ورعايتها بالحجة والبرهان، ولذا كانت المثالية الواقعية من أوضح الصور الأدبية التي تضبط القيم الأخلاقية في مسار الحياة البشرية.

وفي ظل المتغيرات الحضارية والثقافية، لا يخلو الالتزام بتلك المُثُل والقيم من خلل أو زلل يعكر الصفو ويبرهن علي تركيب الإنسان المجبول علي الخطأ والنسيان بما يجعل الالتزام مطية للتعمية الأدبية ومحور التغيير مسار المفاهيم الأخلاقية.

ولقد وقفنا علي نماذج متنوعة في هذا البحث، هي من أوائل التجارب البشرية التطبيقية في جانب المثالية والواقعية والالتزام، برزت من وسط أمواج عاتية من تيارات امتدت من العصر الجاهلي إلي صدر الإسلام والعصور الإسلامية العربية من بعده.

لقد تضمن البحث مرافعة موضوعية عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه كما اشتمل علي مداخلات أدبية من الأرشيف التطبيقي الواقعي لأهل الثقافة العربية من العرب في فترة ما بعد صدر الإسلام.

أهم النتائج

(1) إن القيم الإنسانية من أهم ما تتوارثه الأمم من الآداب جيلا بعد جيل.
(2) إن المثل الحقيقية لا يؤثر عليها مر الزمان وتعاقب الدهور.
(3) كانت الأديان السماوية الموجه الأول للمجتمعات البشرية وأهم ممثل للقيم الروحية والمادية.
(4) أرشد الرسل إلي الوقوف علي الحقائق المحيطة بالمجتمع البشري تمشيا مع التزام العقل السليم.
(5) تعاليم السماء هي أكبر وأكثر القيم ثباتا أمام التيارات الحضارية والمتغيرات الثقافية.
(6) كثير من المثل والقيم الروحية ظلت مدفونة بين ركام بيئات المجتمعات الغارقة في مستنقعات الجهل.
(7) هنالك شتات من المثاليات القيمة متناثرة في البيئات الاجتماعية علي مر العصور كانت تتعاهدها بالاحترام وتعدها من العادات والتقاليد.
(8) إن الإرث الحضاري لعرب الجاهلية لم يكن خاليا من المثاليات التي أقرها الإسلام فأصبحت من مثاليات الأخلاق الحميدة.
(9) ظل العقل البشري والفكر الإنساني محافظا علي فطرته السليمة في كثير من المواقف الاجتماعية الحضارية.
(10) أثبت الأدب الإسلامي المقدرة البرهانية علي التفوق النوعي بين زحام المثل غير الشرعية، والبروز المتميز أمام التحديات المنظمة، والصعاب والعقبات الموجهة.
(11) تجربة الصحابي أبي بكر الصديق من أهم تجارب الأدب الإسلامي في جانب المثالية والواقعية والالتزام.
(12) قضت رسالة الإسلام علي التيارات العصية من أذناب ورواسب العصر الجاهلي، ما بين تحديات القرآن الكريم، ومعجزات النبي محمد ﷺ.
(13) إن المثاليات والقيم القديمة من بقايا الإرث الجاهلي راودت وأقنعت كثيرا ممن عاصر الجاهلية والإسلام، من الذين كانوا يبدون الالتزام الأدبي والأخلاقي دون مراعاة للواقعية أو احترام للمثالية.

(14) كانت المثالية في الأدب الإسلامي نبعا أخلاقيا تنهل منه مختلف القيم في المجتمعات الإنسانية؟.

(15) كانت الواقعية من أوضح الصور الأدبية التي تضبط القيم الأخلاقية في مسار الحياة البشرية.

(16) في غياب المثالية أصبح الالتزام مطية للتعمية الأدبية ومحورا لتغيير مسار المفاهيم الأخلاقية؟.

أهم التوصيات

(1) ضرورة الوقوف علي المؤشرات والقراءات الصحيحة لميزان الأدب الإسلامي.

(2) البحث والتنقيب في القيم الروحية الإسلامية الراسخة في معالم الإنسانية.

(3) رسم ودعم الإطار الحواري للأدب الإسلامي من منابعه الصافية لاستعراض جدلياته وتوثيق أصوله، وإثبات حدوده.

(4) الاعتناء بالقيم الأدبية المنظومة شعرا، والمعاني الأخلاقية المرسومة نثرا، في ظل التوجهات القرآنية والتعاليم النبوية.

(5) توظيف المناهل الشرعية والمنابع الأخلاقية لترقية القيم المختلفة في المجتمعات الإنسانية.

(6) ضبط القيم الأخلاقية في مسار الحياة البشرية.

(7) وقف عجلة الترهل الناجم عن المثاليات الفاسدة بعد أن أصبحت مطية للتعمية الأدبية ومحورا لتغيير مسار المفاهيم الأخلاقية في الإسلام.

(8) يجب أن يتريث الأدباء في الحكم علي مثل وقيم الآخرين، لأن ذلك قد يكون علي سبيل العادة والتقليد وليس علي سبيل الاعتقاد المنهجي الذي يرمي صاحبه إلي تغيير مفاهيم الآخرين وإثبات قيمه ومثله وآدابه.